

د. محمد بوعلاوي جامعة

المسيلة

عرف الشعر الجاهلي صوراً شتى من التأبين، ولكن بمجيء الإسلام أزاح الكثير من عادات الجاهلية، وأقام مكانها مآثر جديدة من التقوى والإيمان وحب الخير والجهاد في سبيل الله، وهذه القيم كان لها شأنها في الرثاء. وقد رثى الشاعر المغربي القديم الشخصيات السياسية على اختلاف المراتب بدءاً بالخلفاء والسلاطين وانتهاءً بذوي الفضل.

- رثاء الخلفاء:

لم يخل الشعر المغربي القديم من رثاء الخلفاء وذكر مناقبهم، لأنهم وحملوا لواء الإسلام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رثى الشاعر بكر بن حماد التيهري ت296هـ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهجا الشاعر عمران بن حطان الذي أثنى على ابن ملجم قاتل الإمام علي رضي الله عنه، بقصيدة¹، جاء فيها: (من بحر البسيط)

هدمت ويك للإسلام أركاناً	قل لابن ملجم والأقدار غالباً
وأول الناس إسلاماً وإيماناً	قتلت أفضل من يمشي على قدم
سنّ الرسول لنا شرعاً وتبياناً	وأعلم الناس بالقرآن ثم بما
أضحت مناقبه نوراً وبرهاناً	صهر النبي ومولاه وناصره
مكان هارون من موسى بن عمران	وكان منه على رغم الحسود له
ليثاً إذا لقي الأقران أقراناً	وكان في الحرب سيفاً ماضياً ذكراً

أبن الشاعر الإمام علي رضي الله عنه بما يليق بمقامه، فهو أول الشبان إسلاماً وأعلمهم بكتاب الله وبسنة نبيه، عالم مجاهد وصهر النبي صلى الله عليه وسلم، وكان منه مكان هارون من موسى بن عمران، وسيفاً من سيوف الله سله على الأعداء.

ذكرت قاتله والدمع منحدر	فقلت سبحان ربّ الناس سبحاناً
إنّي لأحسبه ما كان من بشر	يخشى المعاد ولكن كان شيطاناً

¹ محمد بن رمضان شاوش: الدرر الوقاد من شعر بكر بن حماد، المطبعة العلوية بمستغانم، ط1، 1966م، ص 62 - 63.

أشقى مراد إذا عدت قبائلها وأخسر الناس عند الله ميزانا

هجا الشاعر ابن ملجم قاتل الإمام علي وشبهه بشيطان ودعا الله أن يقتص منه، وبشره بالخلود في جهنم جزاء فعلته الشنعاء، والقصيدة تؤكد أن الشاعر كان متحررا من قيود المذهبية - ربما - يعود ذلك إلى التسامح والتعايش المذهبي الذي ساد الدولة الرستمية ، أولتنقل الشاعر المستمر بين تيهرت والمشرق والقيروان » ويعد بكر بن حماد أكبر مفخرة للأدب العربي والمغربي، وأنصع دليل على سمو عقليات أهلها «²، ومن القصيدة نستخلص أن الشعراء المغاربة القدماء دافعوا عن الإسلام منذ فجره .

– رثاء الملوك والسلطين:

الملوك والسلطين حكموا البلاد وأخضعوا العباد، ومنهم من كانت له مآثر يحمد عليها، فجادت قرائح الشعراء بقصائد خلدت هذه المآثر، كقول ابن رشيق المسيلي (390 – 463هـ) راثيا " شرف الدولة المعز بن باديس" بهذه القصيدة :

(من بحر البسيط)

لَكَلَّ حَيٍّ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى هُلاكَ	لَا عَزَّ مَمْلَكَةٍ يَبْقَى وَلَا مَلَكٌ
لِحَادِثٍ مِنْهُ فِي أَفْوَهِنَا خَرَسٌ	عَنْ الْحَدِيثِ وَفِي أَسْمَاعِنَا سَكَكٌ
يَهَابُ حَاكِيه صَدَقًا أَنْ يَبُوحَ بِهِ	فَكَيْفَ ظَنُّكَ بِالْحَاكِيْنَ لَوْ أَفْكُوا
أَوْدَى الْمُعْزَ الَّذِي كَانَتْ بِمَوْضِعِهِ	وَبِأَسْمِهِ جَنَابَاتُ الْأَرْضِ تَمْتَسِكُ
فَالصَّوْتُ فِي صَحْنِ ذَاكَ الْقَصْرِ	وَالسُّرْتُ عَنْ بَابِ ذَاكَ الْبُهِرِ مَنْتَهَكُ
وَلَيَّْ الْمُعْزَ عَلَى أَعْقَابِهِ فَرَمَى	أَوْ كَادَ يَنْهَدُ مِنْ أَرْكَانِهِ الْفَلَكَ
مَضَى فَقِيدًا وَأَبْقَى فِي خَزَائِنِهِ	هَامَ الْمُلُوكِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا مَلَكُوا
مَا كَانَ إِلَّا خُسَامًا سَلَهُ قَدْرٌ	عَلَى الَّذِينَ بَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّهُمْ كُؤَا
كَأَنَّهُ لَمْ يَخْضَ لِلْمَوْتِ بَحْرَ وَغَى	خُضْرُ الْبَحَارِ إِذَا قَيْسَتْ بِهِ بَرَكُ
وَلَمْ يَجْذُ بِقَنَاطِيرٍ مَقْنَطَرَةٍ	قَدْ أَرَعَبَتْ بِأَسْمِهِ إِبْرِيْزَهَا السِّكَاكُ
رُوحُ الْمُعْزَ وَرُوحُ الشَّمْسِ قَدْ قَبِضَا	فَأَنْظُرْ بِأَيِّ ضِيَاءٍ يَصْعَدُ الْفَلَكَ
فَهَلْ يَزُولُ حِدَادُ اللَّيْلِ عَنْ أَفْقٍ	وَهَلْ يَكُونُ لَصُبْحٍ بَعْدَهُ ضَحْكُ

الدَّهْرُ يَأْتِي عَلَى كُلِّ حَيٍّ وَيَبْلِي كُلَّ جَدِيدٍ، وَالْفَقِيدُ كَانَ حَسَامًا عَلَى الْبَاغِينَ، جَوَادَا كَرِيمَا، عَاشَ الشَّاعِرُ فِي كَنَفِهِ وَلَنْ يَزُولَ حَزْنُهُ عَلَيْهِ، فَطَالَمَا غَمَرَهُ بِنِعْمَةِ وَعَاشَ مَكْرَمًا بِبِلَاطَتِهِ حِينَا مِنَ الدَّهْرِ.

² رابح بونار: المغرب العربي، تاريخه وثقافته ، دار الهدى، الجزائر- ط3، 1973، ص 120.

أما محمد بن أبي جمعة التلليسي التلمساني فرثى أبا يعقوب الزياتي، بقصيدة³، منها:
(من بحر الوافر)

كأسُ الحِمَامِ على الأنام تدورُ ما إن لها إلا القضاءَ مديرُ
وكذا الليالي لا وفاءَ لعهدِها إن أقسَطْتُ يوماً فسوف تجورُ
كم شتتت من جمع شملٍ لم يكنُ يخشى الشتاتَ وكلَّ ذا مشهورُ
إن أضحكتُ في يومِها أبكتُ غداً فالخيرُ منها إن أتاك غرورُ

الموت كأس والكلّ ذائقه، والأيام لا تقرر على حالٍ واللبيب من لا يأمن الدنيا وزخرفها، فهي كالعادة ذات الدلال والغنج توقع الأغبياء في شراكها، إلى قوله:

فجعتُ بمولانا الأمير وخلفتُ في الدّمع أفاق الجفون تغورُ
كنا نؤملُ أن تدومَ حياته لكنّه ثوبُ الحياةِ قصيرُ
رزءُ ألمٍ فما له من رافعٍ أيُردّ رزءُ ساقه المقدورُ
مولاي يوسفُ والدُ الخلفاء الذي منّاه خطبُ في الوجود كبيرُ
ضجّت لمصرعه الخلائقُ ضجةً كادت بها منّا القلوبُ تطيرُ
كادت تزولُ الراسياتُ لفقدِه والشمسُ تُكسفُ والسماءُ تمورُ

صور الشاعر هول الفاجعة وذكر الفقيد الذي حاز المكارم والفضائل، وقد افتقدته الخلائق كلها، وكاد الكون يهتز لمصرعه .

اصبرُ إذا جاء الزمانُ بحادثٍ إنَّ التصبّرَ سعيُّه مشكورُ
هوّنُ عليك أذى الخطوبِ إنما أنتَ الأميرُ ودهركَ المأمورُ
لا تأخذِ الزمنَ المسيءَ بفعله واصفحْ فإنّك بالأمرِ خبيرُ
إن كان صرفَ الدّهرِ بعدك مذنباً فبقاءً مثلكَ بعده تفكيرُ
من أنتَ تخلفه فحيّ لم يمثُ حقاً يقيناً أيّها النحريرُ
وفيّت حقَّ أبيك بعد وفاتِه إنَّ القيامَ بحقه لبرورُ

من خلف قائداً هماماً كأبي حمو موسى لا يمكن أن يُعدَّ مع الأموات، والأبيات تظهر رقة في دين الشاعر الذي نسب إلى الخليفة القدرة على عقاب الزمن بل وجعله بالأمر خبير، وكل هذا- حسب رأيي - تزلف وتودد للخليفة دون مراعاة دلالة اللفظة والعبارة، خاصة في مجال التوحيد والعقيدة.

³ محمد الطّمّار: تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1969م، ص 190 – 191.

أما " يحيى بن خلدون " (745 – 780 هـ)⁴ ، صاحب كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد الذي يعد مصدراً أساسياً لمن رام البحث في تاريخ الدولة الزيانية وبه تراجم لأعلام وأدباء كثر أنجبهم تلمسان، منه هذه الأبيات التي رثى بها أبا يعقوب الزياني: (من بحر الطويل)

أيا جدثاً فيه العلى والمكارم	أتبكيك أم تسقيك هذي الغمام
لئن بردت ذاك الثرى نفحة التقى	لقد لفحت بين القلوب السمائم
وإن أصبحت تلك الصفائح روضة	فأعطينا سحبت عليها سواجم
لقد صار شخص الحلم والجود رمة	وأبقى جبال الدين وهي رمائم
وردد فيه نوحه كل ناطق	كأن جميع العالمين حمائم
تباشرت الحور الحسان بقربه	ففيهن أعراس وفيهن صمام
فصلى عليه الله خير صلاته	وكان له منه مشيب وراحم

بكى الشاعر الفقيد وعد مناقبه من حلم وجود وتقى... وبشره بالجنة لأنه قدم لها، وخلف ذكرها حسناً.

وفي نفس السياق قصيدة⁵ لـ محمد القيسي التلمساني الذي كان على قيد الحياة سنة (801) هـ (139م)⁶ قال فيها: (من بحر الكامل).

المرء في الدنيا رهين خطوب	والدهر أفصح من خطاب خطيب
من صاحب الدنيا الدنية لم تزل	تأتيه بالمكروه في المحبوب
ومؤمل الأيام ليس بحاصل	إلا على أمل بها مكذوب

الإنسان رهين حوادث وخطوب، والدهر ماضية أحكامه، والأيام كثيرة التقلب، والدنيا حلم زائل عما قليل، هي المعاني التي تضمنتها الأبيات السابقة، وأضاف قائلاً:

ناد بنادي المجد صرخة نادب أسفاً على المولى أبي يعقوب

⁴ « هو "أبو زكرياء يحيى بن محمد بن خلدون" التونسي النشأة التلمسانية الدار، شقيق عبد الرحمن بن خلدون، حلّ بتلمسان عام 769 هـ 1367 م، قادماً من بسكرة فوлах السلطان "أبو حمو" وظيفتي الحجابة والكتابة، وبقي في عمله ذلك إلى أن قتل وهو في عنفوان الشباب» ينظر إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر، ص270.

⁵ محمد الطمار: تاريخ الأدب الجزائري، ص 183 – 184.

⁶ « هو "أبو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني" ويقال له الثغري أيضاً، أندلسي الأصل تلمساني الدار، كان من جملة الموظفين ببلاط السلطان "أبو حمو موسى الزياني" ينظر إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر، ص292..

فعليه، يا نفسي الكئيبة، فاندُبي
أسفاً لمن فاق الملوك جلاله
جمع الفضائل باختلاف ضروبها
أعظم به من زاهدٍ ومجاهدٍ
من دأبه الدين المتين ولم يزل
من كل فضلٍ آخذاً بنصيب

أبن الشاعر الميت، وعدد محامده، فقد فاق الملوك مكانة وتقى، زاهد وقائد همام بكته الطبيعة والنجوم وناحت عليه المحاريب، وبموته عمّ الحزن والكآبة وجه الزمان، ثم قال:

فتعزّ يا مولاي، عنه فإنه
ومضى لرحمة ربّه مستبشراً
واختار دار الخلد من دار الفنا
ولقد أطاب النفس أن وفاته
ومضى وخلف منك خير خليفة
ما مات من أضحى لمثلك منجياً
قد فاز من مولاة بالمرغوب
بثوابه والله خير مئيب
بدلاً كذلك فعل كل ليب
في العزّ تحت رواقه المضروب
للخلق مرغوب الندى مرهوب
يا خير نجل في الملوك نجيب

تعزية ممزوجة بالتهنئة فالسلطان خير وارث لعرش أبيه، ثم دعا له بالتوفيق.

رثاء وتعزية الأمراء والقادة :

– رثاء الامراء:

الأمراء حكموا البلاد وساسوا العباد ول بعضهم أفضال تذكر كلما ذكروا، جعلها الشعراء قيما في رثائهم لهم أوفي تعزية خلفائهم وذويهم.

أما ابن هانئ الأندلسي" (326 – 363 هـ)⁷ فرثى والدته الأميرين جعفر و يحيى ابني علي، وعزاها بقوله: (من بحر الكامل)

صَدَقَ الفناء وكذبَ العُمُرُ وجلَّ العِظَاتُ وبالغَ النذرُ

⁷ « هو " أبو القاسم محمد بن هانئ الأزدي الأندلسي " أصله من المهدية الإفريقية لكن أباه انتقل إلى الأندلس... إنغمس في مذهب الفلاسفة فنقم عليه سكان البلاد ونقموا حتى على أميرهم فأشار عليه هذا الأخير بالهجرة ريثما تهدأ الأفكار فخرج منها قاصداً المغرب الأوسط عام (535 هـ / 964 م) فتوجه إلى قاعدة " الزاب " يومئذ ونزل على واليها "جعفر" وأخيه " يحيى " ابني "علي بن حمدون" ثم اتصل بـ "المعز لدين الله العبيدي" « ينظر إرشاد الحائر إلى أدباء ، ص 38.

إنا وفي آمالِ أنفسنا طولٌ وفي أعمارنا قصرٌ
لنرى بأعيننا مصارعنا لو كانت الأبواب تُعتبرُ
مما دهانا أن حاضرنّا أجفأنا والغائب الفكرُ
فإذا تدبرنا جوارحنا فأكلهنّ العين والنظرُ

استهل الشاعر قصيدته بجملة من الحكم موضوعها الموت والفناء ، فالأعمار إلى زوال
والآجال أقصر من الآمال، ثم استطرد قائلاً:

أفترّك الأيامَ تفعلُ ما شاءت ولا نسطو فننتصرُ
هلاً بأيدينا أسنّتها في حين نُقدمُها فتشتجرُ
فانيذُ وشيخاً وارمِ ذا شطبٍ لا البيضُ نافعة ولا السمُرُ

تبرم الشاعر من سطوة الدهر الذي حصد أرواح الكثير ولا قدرة لأحد على دفعه، ثم قال:

أعقيلة المَلِكِ المشيِّعِها هذا الثناء وهذه الزمرُ
شهد الغمام وإن سقاك حيا أن الغمام إليك مُفتقرُ
كم من يدٍ لك غيرُ واحدة لا الدّمعُ يكفُرُها ولا المطرُ

أبن الشاعر والدة الأميرين ذاكرا كرمها ونوالها، وما توظيفه لهذه الألفاظ إلا استعطاف لولديها،
فالعاطفة تكاد تنعدم من قصائده وإن وجدت فهي مصطنعة، وليست الناحية التكلّي كالمستأجرة.

أبقت حديثاً من مآثرها يَبْقَى وتنفد قبله الصّورُ
فإذا سمعتَ بذكرِ سُودِّها ليلاً أتاكَ الفجرُ يَنفَجِرُ
ولقد تكونُ ومن بدائِعها حِكْمٌ ومن أيامها سيَرُ
إنّا لَنُؤْتِي من تجاربِها علماً بما نأتي وما نذرُ
قَسَمْتُ عَلَى ابْنَيْها مكارمَها إنَّ التّراثَ المَجْدُ لا البَدْرُ

الفقيدة صاحبة مكارم ومجد سليلة قحطان ومضر، أنجبت للورى ابني علي وأورثتهما المجد
ومآثر جمة، ثم يقول:

وإذا صَحِبْتَ العَيْشَ أولهُ صَفَوُ فَهَيْنُ بَعْدَهُ كَدْرُ
وإذا انتهيتَ إلى مَدَى أَمَلٍ دركا فيومٍ واحدٌ عُمُرُ
ولخَيْرُ عَيْشٍ أنتَ لَابِسُهُ عَيْشٌ جَنَى ثمراتِهِ الكِبَرُ

حكم عدة تنساب متتابعة دليل على ثقافة الشاعر وسعة اطلاعه ولا يمكن اعتبارها خلاصة
تجربة، لأن الشاعر هلك ولم يبلغ الأربعين من عمره.

وللشاعر في الموضوع نفسه قصيدة ثانية، منها قوله: (من بحر المتقارب)

ألا كلَّ آتٍ قريبُ المدى وكلَّ حياةٍ إلى مُنتهى
وما غرَّ نفساً سوى نفسها وعُمرُ الفتى من أمني الفتى
فأقصرُ في العين من لفظةٍ وأسرعُ في السمع من ذا ولا
بدأ الشاعر قصيدته بجملة من الحكم توحى بعجز الإنسان أمام أقداره.

ولو غيرُ ريبِ المُنونِ اعتدى عليّ وجربني ما اعتدى
خليلي هل ينفعني البكاء أو الوجدُ لي راجعُ ما مضى
خليلي سيرا ولا تربعاً عليّ فهمي غيرُ الثوى
ولي زفراةٌ تُذيبُ المطيَّ وقلبٌ يسدُّ عليّ الفلا

الموت شر زائر مرتقب، وقد مزج الشاعر أبياته بفخر فنفسه تتوق إلى الأفضل، وهمته تطاول الثريا، إلى أن قال:

وما ضرَّ مَنْ لم يطفُ بالمقام إذا طافَ بالجوسقِ المُبتنى
وقالوا الحجونُ فثمَّ الحجونُ وثمَّ الحطيمُ وثمَّ الصفا
قبر الفقيدة سيكون محجاً للتبرك به، لأنه حوى جثمان صاحبة المجد المؤثّل.

فلولا الضريحُ لنادتكما تعيذكما من شماتِ العدى
فإمّا تزيدان في أنسها وإمّا تذودان عنها البلى
فقد يُضحكُ الحيُّ سنَّ الفقيدِ فتهتزُّ أعظمه في الثرى
ومهما طلبتِ دليلَ الكرامِ فإنَّ الدليلَ إنتلافُ الهوى
وأنتِ اليمينُ فصلٌ بالشمالِ فما بيدٍ عن يدٍ من غنى

عزى الشاعر الأميرين **جعفر ويحي** وأكد أن قوتهما في اتحادهما، وذاك ما يسعد والدتهما في قبرها.

وله قصيدة أخرى رثى بها ابن **إبراهيم بن جعفر بن عليّ** أمير الزاب وعزى والده، قال فيها: (من بحر الرمل).

وهبَ الدهرُ نفيساً فاستردَّ ربّما جاد لئيمٌ فحسدُ
إنّما أعطى فواقِي ناقةٍ بيدٍ شيئاً تلقاه بيدُ
كاذبٌ جاءَ جهاماً زبرجاً بعدما أومضَ برقٌ ورعدُ

إنَّهَا شِنْشِينَةٌ مِنْ أَخْزَمٍ قَلَمًا ذُمَّمٌ بِخَيْلٍ فَحُمِدُ
خَابَ مَنْ يَرْجُو زَمَانًا دَائِمًا تُعْرِفُ الْبِأَسَاءُ مِنْهُ وَالنَّكَدُ

الزمن عدولود للخلق، فإن أعطى باليمين أخذ بالشمال ، وإن أضحك ساعة أبكى دهرًا،
معان أوردها الشاعر في قالب حكيم، ثم استرسل قائلا:

مَاتَ مَنْ لَوْ عَاشَ فِي سِرْبَالِهِ غَلَبَ النُّورُ عَلَيْهِ فَاتَّقَدُ
سَيِّدُ قَوِيلٍ فِيهِ مَعَشَرُ لَيْسَ فِي أَبْنَائِهِمْ مَنْ لَمْ يَسُدْ
نَافَسَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ يَعْزُبًا فَرَأَى مَوْضِعَ حَقْدٍ فَحَقَّدُ
هَابَ أَنْ يُجْرِيَ عَلَيْهِ حُكْمَهُ فَنَوَى الْغَدَرَ لَهُ يَوْمَ وُلِدُ
حَيْثُ لَمْ يُنْظَرْ بِهِ رِيعَانُهُ إِنَّمَا اسْتَعْجَلَهُ قَبْلَ الْأَمْدُ

الفقيد سليل أمجد سطا الدهر عليه صغيرا لأنه يعجز عن مقارعة كئيبا، ومضى الشاعر في
تأبينه ووصف موكب التشييع ، والحزن الذي خيم على الجميع، والملاحظ أن الشاعر لم يجد ما
يؤنب به هذا الطفل فتطرق إلى نسبه وإلى عتاب الدهر، بحكم عدّة وازن بها بين العقل
والعاطفة، وسهلت تحوله من التأبين إلى التعزية :

لَوْ يَرُدُّ الْحَزْنَ مِيتًا هَالِكًا رُدَّ قَحْطَانُ وَادِّ بْنِ أَدِّ
وَاكْتَسَتْ أَعْظَمُ كَسْرَى لَحْمَهَا وَسَعَى لِقْمَانُ أَوْ طَارَ لَبَدُ
فِي عَلِيٍّ مِنْ عَلِيٍّ أَسْوَةٌ صَدَعَ الضَّلَعُ الَّذِي أَتَكَى الْكَبَدُ
أَيَّ مَفْقُودِيكَ تَبْكِيهِ أَبُ هَبْرَزِيَّ أَنْتَ مِنْهُ أُمَ وَلَدُ

تعزية الوالد الذي فقد الأب قبل الابن، ثم استطرده مادحا ومذكرا بالملوك الهالكين والأمم الزائلة
للاعتبار.

ولشاعر مجهول قصيدة في تأبين المهدي بن تومرت إمام الموحدين (469 – 524هـ)⁸
قال عنه المراكشي: «رجلٌ من أهل الجزائر (مدينة من أعمال الجزائر)... وفد على أمير

المؤمنين "أبو يعقوب" وهو بـ"تينمل" فقام على قبر "ابن تومرت" بمحضر من الموحدين
وأُشيد القصيدة التالية، ثم زاد قائلا: وهي طويلة هذا ما اخترت منها»⁹: (من بحر الكامل)

سَلَامٌ عَلَى قَبْرِ الْإِمَامِ الْمُجَدِّ سَلَالَةُ خَيْرِ الْعَالَمِينَ مُحَمَّدِ
وَمُشَبِّهُهُ فِي خَلْقِهِ ثُمَّ فِي اسْمِهِ وَفِي اسْمِ أَبِيهِ وَالْقَضَاءِ الْمَسْدِ
وَمُحْيِ عُلُومِ الدِّينِ بَعْدَ مَمَاتِهَا وَمُظْهِرِ أَسْرَارِ الْكِتَابِ الْمَسْدِ

⁸ أبو الحسن علي بن الأثير: الكامل في التاريخ ، دار صادر بيروت، 1966 م، ج 10، ص 138.

⁹ عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، دار الساعدة القاهرية، 1324 هـ، ص

أَتَتْنَا بِهِ الْبُشْرَى بِأَنْ يَمْلَأَ الدُّنَا بِقِسْطٍ وَعَدْلٍ فِي الْأَنَامِ مَخْلَدٍ
وَيَفْتَتِحُ الْأَمْصَارَ شَرْقاً وَمَغْرِباً وَيَمْلِكُ غُرْباً مِنْ مُغِيرٍ وَمُنْجِدٍ
فَمَنْ وَصِفِهِ أَقْتَى وَأَجَلَى وَأَنَّهُ عَلَامَاتُهُ خَمْسٌ تَبَيَّنُ لِمَهْتَدٍ
زَمَانٌ وَاسْمٌ وَالْمَكَانُ وَنَسَبَةٌ وَفَعْلٌ لَهُ فِي عِصْمَةٍ وَتَأْيِيدٍ
وَيَلْبِثُ سَبْعاً أَوْ فَتْسَعاً يَعِيشُهَا كَذَا جَاءَ فِي نَصِّ مِنَ النُّقْلِ مُسْنَدٍ
فَقَدْ عَاشَ تِسْعاً مِثْلَ قَوْلِ نَبِيِّنَا فَذَلِكُمْ الْمَهْدِيُّ بِاللَّهِ يَهْتَدِي

نظم الشاعر هذه القصيدة تأبيناً لإمام الموحدين ابن تومرت الذي زعم أنه الإمام المهدي وقد أورد خمس علامات يرى أنها تدل على صدقه: الزمان والمكان، والنسبة، والفعل، ولبقائه سبعا أو تسعاً يعيشها، ثم راح يحشد جملة من الأوصاف على أتباعه، ويظهر أن الشاعر كان شديد الإعجاب بـ"ابن تومرت" وبدعوته، ومن القصيدة نستشف الأفكار التي تأسست عليها دعوة الموحدين، وقد ذكر "المراكشي" أن: «منشئ هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه منعه عن ذلك الكبرة وبعد الشقة وإنما أرسل بها فأنشدت على قبر الإمام»¹⁰.

وعزى "لسان الدين بن الخطيب" (715 – 776 هـ / 1314 – 1375 م)¹¹ "عامر بن محمد الهنتاني". عن أخيه "عبد العزيز" بقوله: (من بحر الطويل)

أَبَا ثَابِتٍ كُنْ فِي الشَّدَائِدِ ثَابِتاً أُعِيدُكَ أَنْ يُلْفَى حَسُودُكَ شَامِتاً
عَزَاؤُكَ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ هُوَ الَّذِي يَلِيقُ بَعِزٍّ مِنْكَ أَعْجَزَ نَاعِتاً
فَدُوحَتُكَ الْغَنَاءَ طَالَتْ ذَوَائِبُ وَسَرَحَتُكَ الشَّمَاءَ طَابَتْ مَنَابِتُ
لَقَدْ هَدَّ أَرْكَانَ الْوُجُودِ مُصَابُهُ وَأَنْطَقَ مِنْهُ الشَّجَوُ مَنْ كَانَ صَامِتاً
فَمَنْ نَفْسٍ حَرٍّ أَوْثَقَ الْحَزْنَ كَظْمَهَا وَمَنْ نَفْسٍ بِالْوَجْدِ أَصْبَحَ خَافِتاً
هُوَ الْمَوْتُ لِلْإِنْسَانِ فَصَلُّ لِحْدِهِ وَكَيْفَ تَرْجَى أَنْ تُصَاحِبَ مَانِتاً
وَلِلصَّبْرِ أَوْلَى أَنْ يَكُونَ رُجُوعُنَا إِذَا لَمْ نَكُنْ بِالْحَزَنِ نُرْجِعُ فَانِتاً

دعا الشاعر "عامر" إلى الصبر والتصبر كي لا يشمت الحساد، فالموت مصير كل حي، والصبر والتجلد أولى بالمصاب ما لم يستطع إرجاع الفائت، والمقطوعة تخلو من التأبين

¹⁰ المرجع السابق ، ص 192.

¹¹ « هو "أبو عبد الله محمد بن عبد الله الملقب بلسان الدين بن الخطيب"، ولد بمدينة "لوشة" ونشأ بـغرناطة» تردد على المغرب وتلمسان عام 773 هـ 1371 م. ينظر إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر، ص 264.

والندب وهي عبارة عن عزاء لا عاطفة به.

— رثاء القادة :

للقائد مكانة في السلطة وفي تنظيم الجيوش وتحقيق النصر، وحالة وفاته يؤبنه الشعراء بذكر فضائله، وهي عامة: **حسن القيادة والشجاعة والرفق بالرعية**. فقد عزي " **محمد بن الحسين الطبني** " (300 – 394 هـ)¹² " **المنصور بن أبي عامر** " عن [وزيره] " **حسن بن أحمد** " المقتول في معركة " **ملوية** " عام (381 هـ 991 م) ، بقوله : (من بحر البسيط)
لا شك أن سجل الحرب مختلف فيما روى الناس مذ كانوا ومذ عرفوا

هوّن عليك فنصر الله يعقبه يا ربّ كره إلى المحبوب منصرف
ياغرّة السعد الميمون طائرّه لا تكثرث فإليك النصر ينعطف
لوهلك الناس لا ينفعك هلّهم فأنت وحدك عنهم كلّهم خلف
لله عندك عادات سيكملها فعادّة الله قسم ليس ينحرف
كم قد رأينا الذي لا يرتقي سبباً إلى رضا بجميع الصنع يأتلف¹³

دعا الشاعر الوزير " **المنصور بن أبي عامر** " إلى الصبر، ثمّ أنسه بأنّ النصر سينعطف إليه فهو خلف لكلّ فقيد ، والمقطوعة هي الأخرى تقتصر على العزاء.

ولـ " **ابن حمديس الصقلي** " قصيدة رثى بها الوزير القائد الصنهاج " **أبو الحسن علي بن حمدون الصنهاجي** " ¹⁴ جاء فيها: (من بحر الطويل)

بكى فقدك العزّ المؤيد والمجد وناحت عليك الحرف والضمّر الجرد
وقد ندبتك البيض والسمر في الوعى وعددك التأييد والحسب العد
وما فقدت إلى عظيماً وفقدّه به بين أحشاء العلى يوجد الوجد
وكنّت أمين المالك حقاً وسيفه ومن حسنات البر كان لك الغمد

الفقيد وزير وأمين ملك وقائد همام فقدّه العزّ والمجد وبكته خيوله والسيوف ، ثمّ قال:

يروح ويغدو في المنى وحسوده بعيد رشاد لا يروح ولا يغدو

¹² « هو " أبو مضر محمد بن الحسين " التميمي الحماني الطبني، ولد ونشأ بـ " طبنة " وبها تلقى دروسه الأولى وبقي بها إلى أن بلغ الخمسة والعشرين سنة، ثمّ غادرها نحو المغرب ثمّ الأندلس، ودخل " قرطبة " عام 325 هـ 937 م وولي الشرطة بها في أيام " عبد الرحمن الناصر " وابنه " الحكم المستنصر " » ينظر إرشاد الحائر إلى أدباء الجزائر، ص 45.

¹³ رابح بونار: المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص 63.

¹⁴ ابن حمديس الصقلي: الديوان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ط1، ص 173.

ومن حيث ما ساورته خفت بأسه وللنار من حيث انثنت لها وقد
وإن جاد كان الجود منه مهناً كغيث همى ما فيه برق ولا رعد
ولله في الإجلال ذكر محمدٍ بكلّ لسانٍ في الثناء له حمدُ
هم السادة الأمجاد والقادة الألى تعدّ المعالي منهم كلما عدّوا
ويأمرهم بالصبر والحزم خاذلٌ لهم صبرٌ ووجدانه فقدُ
وأَيّ اضطبار فيه للنفس راحة عن القائد الأعلى الذي ضمه للحدّ¹⁵

مآثر الفقيد هي الشدّة في مواطن الشدّة والرحمة حيث الرفق والرحمة أنسب، جوادٌ كريمٌ سليل
أما جد ذو نسبٍ رفيع، أسد هصور في الدفاع عن إمارته، يقود جيشاً عرمرماً لبس للحرب
لبوسها، وبموته فقدت الشجاعة والبطولة والكرم، والقصيدة لا تخلو من تعزية آل الفقيد.

وللشاعر قصيدة¹⁶ ثانية في رثاء نفس القائد يقول في مطلعها: (من بحر الطويل)
رمى الموتُ في عينِ التصبّر بالدمِّ و قال لحُسْنِ الصبرِ بين الحشا دم
الموت مقدر لا مرد له، وعلى الإنسان الرضى بقدره والصبر على ما أصابه، إلى أن يقول:

عليّ بن حمدون الذي كان حمدهُ تُرْفَعُ منه هِمّةُ المتكلم
خلتْ منه يومَ الرّوعِ كلّ كتيبةٍ وكم عَمِرَتْ من بأسِهِ بالتقدّم
كأنّ عليها للعجاج ملاءةٌ مُطَيَّرَةٌ في الجو من كلّ قشعِم
متى تعبس الهيجا له في لقاءه رأث منه في الإقحام سِنَّ تبسم

لا يختلف مضمون هذه القصيدة عن سابقتها كثيراً ، فالشاعر افتقد في المرثي شجاعته وإقدامه
حيث كان صاحب لواء نصر، بكته كتائب طالما شهدت بأسه.

وكم كرمٍ تنهلّ جدوى يمينه لأيدي عفاةٍ من مُجَلٍّ ومُحَرَّم
كأنّ صفاءَ الجوّ يومَ عطائه مشوبٌ بشؤبوبٍ الغمام المديّم

الجود مات بموت القائد ، وختم الشاعر القصيدة بتوجيه العزاء الى أبنائه، ودعا لهم بالعز
والسودد، هذه المعاني وغيرها تضمنتها القصيدة.

خصائص رثاء الشخصيات السياسية:

- بعض القصائد امتازت بالطول مثل قصائد "ابن هانئ الأندلسي" و "ابن حمديس الصقلي".

¹⁵ نفسه، ص 173.

¹⁶ نفسه، ص 482.

- بعضها حمل إشارات مذهبية كقصائد "ابن هانيء الأندلسي" التي تضمنت ظلالاً شيعية.
- القيم التي ركز الشعراء عليها هي الكرم والإقدام والصبر وحسن التدبير.
- يمكن إحصاء بعض الألفاظ السياسية التي كانت متداولة على أيام الشاعر.
- أرخت بعض القصائد لأحداث هامة ولفترات زمنية معينة، مما أهلها أن تكون وثائق تاريخية ذات أهمية بالغة.